

المصاب



الطريق إلى الضاحية الجنوبية كان الغداء والناس يتحركون في فوضى عارمة في كل الاتجاهات. تأخرنا أكثر من ساعة ونصف عن المصاب. التجمعات السكنية التي أحدثت في الضاحية الجنوبية جعلت التنقل فيها كابوساً، كأن كل أهل المدينة سكنوا هناك، وصاروا يروحون ويجيئون بين الوسط الإداري. حيثُ المباني الحكومية، والمدارس، والمستشفيات، والضاحية الغاصة بالشقق الإقتصادية. "انتبه! يا أخي لسنا في سباق سيارات..." صاح زميلي صلاح بحنق.

أفكر في المسكين الذي ينتظرنا، زوجته تتصل كل دقيقتين، أعياني الرد عليها. صفارة الإنذار لم تعد تفلح في إفساح الطريق لسيارة الإسعاف، كثير من السائقين، والراجلين، وراكبي الدراجات يتجاهلونها.

"بهائم... ألا يخافون على أرواحهم؟" صرخ فيهم صلاح "وأنت انتبه، ستكون - وإي - مهزلة إن تعرضنا لحادث، وطلبوا لنا سيارة إسعاف..."

ابتسمت بسخرية.

ثلاث من سيارات المستشفى معطّلة، اثنتان انطلقتا قبلنا في مهمتين خارج المدار الحضري، وثلاث أخريات في أمكنة ما في المدينة، ولن تحضر إن طلبها أحد قبل مرور ساعات.

هناك دائماً أعذار جاهزة لتبرير التأخير. تذبذب الهاتف الذي وضعته بجانبه، زوجة المصاب من جديد، طلبت من صلاح أن يرد عليها، ورفض.

"ماذا أقول لها: ماذا يظن الناس؟ أنا "سوبرمانات" تطير وتأتي إليهم؟ ما عليها إلا أن تطل على الشارع لترى الصفوف الطويلة العريضة التي نحاول المرور منها! ناس لا يرحمون!".

صاحبي سيئ النية، لولاه لما تأخرنا كل هذا الوقت، طلب أن نمر على مدرسة ابنه ليسلم البواب مطروفاً يوصله إلى المدير، لم نجد البواب في مقصورته، ودخل صلاح وغاب هناك أكثر من نصف الساعة.

"الصوص! يريدون مني أن أدفع ثمن لوازم لم يطلبها ابني، ولا يحتاج إليها، لم أدخله مدرسة خصوصية ليعزف على الكمان، أريده أن يدرس العلوم بشكل جيّد، هذا كل ما أطلبه. موسيقى بالعافية؟ ليحلّموا...!".

لم أسأله ماذا كان في المطروف الذي سلمه إليهم، رغم أنني كنت أشعر بالفضول. إتصالات زوجة المصاب المتوالية نرفرتني.

"من هنا، ها هي العمارة. وأخيراً...!".

اتبعت إرشاداته، ميزة صاحبي الوحيدة أنّه يعرف كل شبر في المدينة.

نزلنا، وحملنا المحفة، وحقيبة الإسعافات الأولية، وأسرعنا إلى الطابق الخامس.

الممر مليء بالناس، وباب الشقة مفتوح، وبكاء الأهل يصم الآذان.

لم نسلم من حلق الذين طلبونا، وتأخرنا عليهم، دفعناهم بصمت، وتوجهنا إلى البلكونة حيث قالوا لنا إن المصاب وقع.

الرجل استعاد وعيه، ويبدو هادئاً أكثر من أهله، لكنه غير قادر على الحراك.

"كنت أضبط الصحن اللاقط على السطح" شرح لنا بكلمات واضحة: "لا أدري كيف انزلت قدماي، شعرت بصدمة أليمة، وغبت عن الوعي، وحين أفقت لم أستطع أن أحرك أطرافتي، ولا أن أرفع رأسي، لدي كسور دون شك...".

تركت صلاح يفحصه، ورفعت رأسي إلى أعلى، الرجل محظوظ لأنّه وقع في البلكونة، لو أكمل سقطته إلى تحت لتهشم رأسه على الأسفلت.

نقلناه إلى السيارة، وركبت معنا زوجته ودموعها لا تتوقف.

جلس صلاح قربه، وفتحت الحاجز الزجاجي بيننا لأتابع الحالة وأنا أقود السيارة.

"ألا يفترض أن يكون هناك ممرضان على الأقل في سيارة الإسعاف؟" سأل المصاب الذي لم يفقد شيئاً من ملكاته الذهنية، توصلت إليه زوجته ليصمت ويرتاح، وأجبتة بسخرية: "يفترض... نعم... لكننا نعاني من نقص في الأطر الطبية".

صلاح منشغل بقياس ضغط المصاب، وتدوين نتائج فحوصاته، والرجل مصر على متابعة إستجوابه.

سأل عن الوقت الذي خرجنا فيه، والمسافة التي تفصلنا عن المستشفى، والسرعة التي أسير بها، وأشياء

أخرى لم يعجيني أن يدس أنفه فيها .

مجال رؤيته كان محدودا ، ورغم ذلك فاجأني باستنتاج حائق: " أنت لا تضع حزام الأمان ، أليس كذلك؟".
أخبرته أنّه مصيب.

"لماذا؟" أراد أن يعرف، ووجدت نفسي أرد عليه بغيط: "لماذا؟ لأنني لا أريد، لم أضع حزام الأمان منذ تعلمت القيادة، ولن أبداً بوضعه الآن".

ذكرني بأنّ هناك غرامة ثقيلة يجب دفعها لشرطة المرور إن استوقفتني، وضحكت، وضحك معي صاحبي.
"شرطة المرور؟ أخفتنا وإِنا، لتستوقفنا إن استطاعت...".

نقلنا الرجل على محفته إلى قسم المستعجلات، طلب أن يتعرف علينا، وتبادلنا الأسماء، وعلمنا أن مصابنا العزيز شرطي مرور ملحق بشارع غير بعيد عن المستشفى. لم نكن نضحك عندما تركناه وعدنا للسيارة.